نُسمِّيهم مرة القرآن ومرة الكتاب ، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ① ﴾ [النمل] بيِّن واضح ومحيط بكل شيء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ③⑧ ﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ حكينا ما حدث مع الإمام محمد عبده[1] - رحمه الله - حينما كان فى فرنسا ، وسأله أحد المستشرقين : تقولون إن القرآن أحاط بكل شيء ، فكم رغيفاً فى إردبّ القمح ؟ فدعا الإمام الخباز وسأله فقال : كذا وكذا ، فقال المستشرق : أُريدها من القرآن ، قال الإمام : القرآن قال لنا : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦ ﴾ [الأنبياء]

فهو كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ③⑧ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ﴾

الهدى : يأتي بمعنيين : بمعنى الدلالة على طريق الخير ، وبمعنى المعونة ، فمن ناحية الدلالة هو هُدىً للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ؛ لأنه دلَّ الجميع وأرشدهم ، ثم تأتي هداية المعونة على حسب اتباعك لهداية الدلالة .

---

(١) هو : الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني ، مفتي الديار المصرية ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام ، ولد في قرية شنرا من قرى الغربية بمصر (١٨٤٩ م) نشأ في محلة نصر بالبحيرة ، تولى منصب القضاء وتوفى بالإسكندرية (١٩٠٥) عن ٥٦ عاماً ، ودفن بالقاهرة . له مؤلفات كثيرة . [الأعلام للزركلي ٦/٢٥٢].

فمَنْ أطاع الله وآمن به وأخذ بدلالته ، فكأن الحق سبحانه يقول له : أنت استأمنتني على حركة حياتك وأطعتني في أمري ونهيي ، فسوف أخفف عنك وأهوِّن عليك أمر العبادة وأعينك عليها ، وهذه هي هداية المعونة التي قال الله عنها : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وكذلك الكافر الذي لم يأخذ بهداية الدلالة والإرشاد ، واختار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله عليه ، ويُيسِّر له ما سعى إليه من الكفر ؛ لذلك يختم الله على قلوب الكافرين حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر .

لكن الهداية هنا : أهي هداية دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقول : هي هداية معونة ، بدليل قوله تعالى بعدها ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النمل] فما كانوا مؤمنين إلا لأنهم مهديون ، والبُشْرى لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن : هي معونة للمؤمنين بأنْ يزيدهم هدايةً إلى الطريق السَّويّ ، وإلى جنات النعيم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾ [التحريم]

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التي تأتي للمؤمن والكافر لكانتْ بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النمل] فتعيَّن أن يكون المعنى هداية المعونة وهداية البشرى .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③﴾

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق الواحد الإله المختار الفاعل الذي له صفات الكمال ، تؤمن بها حتى

تصيـر عقيدة فى نفـسك ثابتة لا تتزعـزع ، والإيمان اعتـقاد بالقلب ، وقَوْل باللسان ، وعمل بالجوارح ، فلا يكفى النطق باللسان ، إنما لابد من أداء تكاليف الإيمـان ومطلوباته ، وقمـتها إقـامة الصـلاة ، وإيتاء الزكاة وصَوْم رمضان ، والحج .

فالصلاة دعوة من الله لخَلْقه ، دعوة من الصانع للمصنوع ، فربُّك يستدعيك إلى حضرته ، وكـيف بالصَّنْعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كل يوم خمس مرات ، ومع ذلك نرى مَنْ يُقـدِّم العَمل على الصلاة ، وإذا سـمع النداء قـال عندى أعـمال ومـشـاغل ، إياك أنْ تظن أن الصـلاة تعطيل للمصـالح ، أو إضاعة للوقت ؛ لأنك فى حركة حـياتك مع نِعَم الله وفى الصلاة مع الله .

ونقيس هذه الـمسألةَ ـ ولله المـثل الأعلى ـ لو أن أباك ناداك فلم تُجـبـه ، مـاذا يفـعل بك ؟ فـلا يكُنْ ربُّك أهونَ علـيك من أبيك ، ربك يناديك : الله أكبر يعنى : أكبر من العمل ، وأكبر من كل شىء يشغلك عن تلبية ندائه .

وفى الصلاة نأخذ شحـنة إيمانية تُقوِّينا على حركة حـياتنا ، كما لو ذهبتَ ببطارية السـيارة مـثلاً لـجهـاز الشحن أتقـول : إنك عطلتَ البطارية ؟

ولو حـسبنا الـوقت الذى تستـغـرقه الصلوات الـخمس لوجـدناه لا يتعـدَّى ساعة من الأربع والعشـرين ساعة ، فـلا تضن على نفسك بها لتلتـقى بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفـسك عليه ، فـيصلح فيك ما أفسدته حركة الحـياة ويعطيك المدد والعون والشحنة الإيمانية التى تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك .

وإنْ كان مهندس الآلة يُصلحها بشىء مادى ، فربُّك ـ عز وجل ـ

غَيْب ، فيصلحك بالغيب ، ومن حيث لا تدرى أنت ، لذلك كانت الصلاة فى قمة مطلوبات الإيمان .

فإنْ كانت الصلاة لإصلاح النفس ، فالزكاة لإصلاح المال ؛ لذلك تجد دائماً أن الصلاة مقرونة بالزكاة فى معظم الآيات ، وإنْ كان المال نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، فإن الصلاة تأخذ الوقت ، والزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، الزكاة تأخذ ٢,٥٪ أمّا الصلاة فتأخذ الوقت نفسه يعنى بنسبة ١٠٠٪ .

ومع ذلك لا نقول : إن الصلاة أضاعتْ الوقت ، لأن الشحنة التى تأخذها فى الصلاة تجعلك تنجز العمل الذى يستغرق عدة ساعات فى نصف ساعة ، فتعطيك بركة فى الوقت .

وسبق أن قلنا : إن نداء الله أكبر يعنى : أن لقاء الله أكبر من أى شىء يشغلك مهما رأيته كبيراً ؛ لأنه سبحانه واهب البركة ، وواهب الطاقة ، وإنْ كان العمل والسَّعْى فى مناكب الأرض مطلوباً ، لكن الصلاة فى وقتها أوْلَى .

وحين نتأمل أطول الأوقات بين كل صلاتين نجد أنها من الصبح حتى الظهر ، وهو الوقت المناسب للعمل ، ومن العشاء حتى الصبح ، وهو الوقت المناسب للنوم ، وهكذا تُنظِّم لنا الصلاة حياتنا ، فمنْ صلاة الصبح إلى صلاة الظهر سبع ساعات هى ساعات العمل .

لو أن الأمة الإسلامية تمسَّكتْ بشرعها ومنهج ربها ، وبعد هذه الساعات السبع التى تقضيها فى عملك ، أنت حر بعد صلاة الظهر ، أمّا التخصيص الذى طرأ على حركة الحياة فقد اقتضى أنْ يأتى صلاة الظهر بل والعصر والناس ما يزالون فى أعمالهم .

أما الذين يُؤخرون الصلاة عن وقتها بحجة امتداد الوقت بين الصلاتين ، نعم الوقت ممتدٌ ، لكن لا يجوز لك تأخير الصلاة ، ولبيان هذه المسألة نقول : هَبْ أن غنياً مستطيعٌ للحج ، ولم يحج متى يأثم ؟

يأثم إذا ما غَرَّه طول الأمل ، ثم عاجله الموت قبل أنْ يحجَّ ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج ، فقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلك ورد في الحديث : « حُجُّوا قبل ألاَّ تَحجُّوا »(١) .

كذلك الحال في وقت الصلاة ، فهو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ؛ لذلك تارك الصلاة يأثم في آخر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلي فلا شيء عليه .

إذن : لا تتعلَّل بطول الوقت ؛ لأن طول الوقت جعله الله لحكمة ، لا لنأخذه ذريعة لتأخير الصلاة عن وقتها ، طول الوقت بين الصلوات جُعِل للنائم كي يستيقظ ، أو للناسي كي يتذكَّر .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ ﴾ [النمل]

فالآية جمعتْ أمر المؤمن كله ، بداية من العقيدة والإيمان بالله ، ثم الصلاة ، فالزكاة وهما المطلبان العمليان بين إيمانين : الإيمان الأول بالله ، والآخر أنْ يؤمن بالآخرة وبالجزاء والمرجع والمصير .

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ۝٣ ﴾ [النمل] الإيقان : الحكم بثبات الشيء بدون توهُّم شكٍّ ؛ لذلك قلنا : إن العلم أنْ تعرف قضية واقعة وتقول ، إنها صدق وتُدلِّل عليها .

---

(١) أخرجه الحاكم في « مستدركه على الصحيحين » (١/٤٤٨) من حديث الحارث بن سويد رضي الله عنه .

وقلنا : إن اليقين درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقُّ اليقين ، فمثلاً حين أقول لك : إنني رأيتُ في أحد البلاد أصبع الموز نصف متر ، وأن تثق فيَّ ولا تكذبني ، فهذا علم يقين ، فإنْ رأيته ، فهذا عَيْن اليقين ، فإن أخذته وذهبتَ تقطعه مثلاً ، وتوزعه على الحاضرين فهذا حقُّ اليقين . وهذه الدرجة لا يمكن أن يتسرَّب إليها شكٌّ .

لذلك لما سأل النبي ﷺ الصحابي الحارث بن مالك الأنصاري : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال « فإنّ لكل حَقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟» قال : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها[1] ، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون ، فقال له النبي ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

والإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يعطينا صفة اليقين في قوله : لو كُشف عني الحجاب ما ازددتُ يقيناً ؛ لأني صدقت بما قال الله ، وليست عيني أصدق عندي من الله .

ومن هذا اليقين ما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل] مع أن النبي ﷺ وُلد في هذا العام ، فلم يَرَ هذه الحادثة . فالمعنى : ألم تعلم ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليقول للنبي ﷺ أن إخبار الله لك أقوى صدْقاً من رؤية عينيك .

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبراني في المعجم الكبير وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - يعرض الشيء ومقابله لنُجرى نحن مقارنة بين المتقابلات ، وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [النمل]

ولم يَنْفِ عنهم إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة ، لماذا ؟ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ، ولا بالبعث والحساب ، ولو علموا أنهم سيرجعون إلى الله لآمنوا به ، ولَقدَّموا العمل الصالح .

ومعنى ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [النمل] أن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يُؤدُّون مطلوبات الإيمان لا عُذْرَ لهم ؛ لأننا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيداً مُستميلاً مُشوِّقاً وزيَّناه لكم .

فالصلاة لقاء بينك وبين ربك يعبر عن دوام الولاء ، ويعطيك شحنة إيمانية ، والزكاة تُؤمِّنك حين ضعفك وعدم قدرتك ، فنأخذ منك وأنت غنى لنعطيك إنْ حَلَّ بك الفقر ، ولما نهيناك عن الكذب نهينا الناس جميعاً أن يكذبوا عليك ، ولما حذَّرناك من الرشوة قلنا للآخرين : لا تأكلوا ماله دون وَجْه حقٍّ .. إلخ .

وهكذا شرحنا التكاليف وبيَّنا الحكمة منها ، وحبَّبناها إليكم .

أو : يكون المعنى : زيَّنَّا لهم أعمالهم التى يعملونها ، فلما علم الله عشْقهم للضلال وللانحراف ختم على قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر]

لكن مَن الذى زيَّن لهم : ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٦٣) ﴾ [النحل] فالتزيين يأتى مرة من الشيطان ، ومرة مجهول الفاعل ، ومرة زيَّن الله لهم .

ومن تزيين الله قوله تعالى فى شأن فرعون : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ .. (٨٨) ﴾ [يونس] فلما أعطاهم الله النعمة فُتنوا بها .

وإبليس خلقه الله ، وجعل له ذرية تتسلَّط على الناس ، وتُغْويهم ، وما ذلك إلا للاختبار ليرى مَنْ سيقف على هذه الأبواب ، إذن : الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل حواجز عن المعصية ، وجعل لكم دوافع على الطاعة ، فالمسألة منك أنتَ ، فإنْ رأيتُك ملْتَ إلى شىء وأحببته أعنْتُكَ عليه .

والذى يموت له عزيز ، أو المرأة التى يموت ولدها ، فتظل حزينة عليه تُكدِّر حياتها وحياة مَنْ حولها - ويا ليت هذا يفيد أو يُعيد الميت - ونقول لمن يستقبل قضاء الله بهذا السُّخْط : إن ربك حين يعلم أنك أَلفْتَ الحزن وعشقْته وهو رب ، فلا بُدَّ أن يعطيك مطلوبك ، ويفتح عليك كل يوم باباً من أبوابه .

إذن : ينبغى على مَنْ يتعرَّض لمثل هذا البلاء أنْ يستقبله بالرضا ، وأنْ يغلق باب الحزن ، ولا يتركه مواربًا .

ومن التزيين قوله سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ومعنى ﴿ يَعْمَهُونَ (٤) ﴾ [النمل] يتحيرون ويضطربون ، لا يعرفون أين يذهبون ؟

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ ⑤

أى : العذاب السيء ، وهذا فى الآخرة ، فبالإضافة إلى ما حدث لهم من تقتيل فى بدر ، وهزيمة كسرتْ شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك خسارة أخرى فى الآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ⑤ ﴾ [النمل]

والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يَقُلْ : خاسر إنما أخسر ؛ لأنه خسر النعيم ؛ لأنه لم يُقدِّم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظل بلا نعيم وتُركَ فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه ؛ لذلك قال تعالى ﴿ هُمُ الأَخْسَرُونَ ⑤ ﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة ، وهذه خسارة ، ثم هم فى النار ، وهذه خسارة أخرى .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ ⑥

يعنى : هذه المسائل والقضايا إنما تأتيك من الله الحكيم الذى يضع الشيء فى نصابه وفى محله ، فإنْ أثاب المحسن أو عاقب المسيء ، فكلٌّ فى محلّه ، وهو سبحانه العليم بما يضع من الجزاءات على الحسنة وعلى السيئة .

ويقصُّ علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ⑦

ما زِلْنا قريبى عَهْد بذكر طرف من قصة موسى - عليه السلام -

فى سورة الشعراء ، وهنا يعود السياق إليه مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن دعوة موسى - عليه السلام - أخذت حيِّزاً كبيراً من القرآن الكريم ، ذلك لأنهم أتعبوا أنبياءهم وعاندوهم حتى كَثُر الكلام عنهم .

وعجيب أنهم يفخرون بكثرة أنبيائهم ، وهم لا يعلمون أنها تُحسب عليهم لا لهم ، فالنبى لا يأتى إلا عند شقْوة أصحابه ، وبنو إسرائيل كانوا من الضلال والعناد بحيث لا يكفيهم رسول واحد ، بل يلزمهم (كونسلتو) من الأنبياء ، فهم يعتبرونها مفخرة ، وهى مَنْقصة ومذمّة .

أما تكرار قصة بنى إسرائيل وموسى - عليه السلام - كثيراً فى القرآن ، فلأن القرآن لا يروى (حدوتة) و ، لا يذكر أحداثاً للتأريخ لها ، إنما يأتى من القصة بما يناسب موطن العبرة والتثبيت لفؤاد رسول الله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ تعرَّض فى رحلة الدعوة لكثير من المصاعب والمشاقّ ، ويحتاج لتسلية[1] وتثبيت ، فيأتى له ربُّه بلقطة معينة ، ولكن لا يُورد القصة كاملة ، وهذا ليس عَجْزاً - وحاشا لله - عن إيراد القصة كاملة مرة واحدة .

وقد أورد سبحانه قصة يوسف - عليه السلام - كاملة من الألف إلى الياء فى صورة قصة محبوكة على أتمِّ ما يكون الفن القصصى ، ومع ذلك لم يأتِ لسيدنا يوسف عليه السلام ذكْر - فى غير هذه القصة - إلا فى موضعين :

(١) سلاَّنى من همى تسلية وأسلانى ، أى : كشفه عنى . وانسلى عنى الهم وتسلَّى بمعنىً ، أى انكشف . وقال أبو زيد : معنى سلوت إذا نسى ذكره وذهل عنه . [لسان العرب - مادة : سلى] .

أحدهما : فى سورة الأنعام : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنعام]

والآخر فى سورة غافر : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر]

إذن : ورود القصة فى لقطات مختلفة متفرقة ليس عَجْزاً عن إيرادها مُسْتوفاة كاملة فى سياق واحد ، ولو فعل ذلك لكان التثبيت مرة واحدة .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [النمل] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] وفى هذه الآية إضافة جديدة ليست فى الأولى .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ[1] وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] أى : آنس فى ذاته ، أمَّا فى الآيتين السابقتين فيخبر بأنه آنسَ ناراً ، إذن : كل آية فى موقف ، وليس فى الأمر تكرار ، كما يتوهَّم البعض .

فموسى - عليه السلام - يسير بأهله فى هذا الطريق الوَعْر ويحلّ عليه الظلام ، ولا يكاد يرى الطريق فيقول لزوجته : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ

(١) أى الأجل الذى ضربه له شعيب لقاء إنكاحه ابنته ، عندما قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٧/٣) : « قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما » .

نَارًا .. ﴿٧﴾ [النمل] يعنى : سأذهب لأقتبسَ منها ، ليهتدوا بها ، أو ليستدفئوا بها .

وطبيعى أنْ تعارضه زوجته : كيف تتركنى فى هذا المكان المُوحش وحدى ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ [القصص] يعنى : ابقىْ هنا مستريحة ، وأنا الذى سأذهب ، فلربما تعرَّضت لمخاطر فكُونى أنت بعيداً عنها ، إذن : هى مواقف جديدة استدعاها الحال ، ليست تكراراً .

كذلك نجد اختلافاً طبيعياً فى قوله : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٢٩﴾ [القصص] وقوله : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٧﴾ [النمل]

فالأولى ﴿لَعَلِّي .. ﴿٢٩﴾ [القصص] فيها رجاء ؛ لأنه مُقبل على شىء يشكُّ فيه ، وغير متأكد منه ، وهو فى هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شىء غائب عنه ، فلما تأكد قال ﴿سَآتِيكُم .. ﴿٧﴾ [النمل] على وجه اليقين[(١)] .

وفى هذه المسألة قال مرة : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ .. ﴿٢٩﴾ [القصص] وهنا قال : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[(٢)] ﴿٧﴾ [النمل]

ذلك لأنه لا يدرى حينما يصل إلى النار ، أيجدها مشتعلة لها

---

(١) ذكر أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص (٣٠٥) : « فإن قلت : كيف قال هنا : ﴿سَآتِيكُم .. ﴿٧﴾ [النمل] ، وفى ﴿لَعَلِّي آتِيكُم.. ﴿٢٩﴾ [القصص] ، وأحدها قطع ، والآخر ترجٍّ ، والقضية واحدة ؟ قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه عدم الجزم » .

(٢) أى : لعلكم تستدفئون من البرد ، يقال : اصطلى يصطلى إذا استدفأ . [تفسير القرطبى ٥٠٣٨/٧] قال الزجاج : جاء فى التفسير أنهم كانوا فى شتاء ؛ فلذلك احتاج إلى الاصطلاء . وصلَّى يده بالنار : سخَّنها . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

لسان يقتبس منه شعلةً ، أم يجدها قد هدأتْ ولم يَبْقَ منها إلا جذوة ، وهى القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً ، فكلُّ تكرار هنا له موضع ، وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة ، فهو تكامل فى اللقطات تأتى متفرقة حَسْب المراد من العبرة والتثبيت .

ومعنى ﴿ لأَهْلِه .. ۝ ٧ ﴾ [النمل] قالوا : إنها تعنى جماعة بدليل قوله لهم ﴿ امْكُثُوا .. ۝ ٢٩ ﴾ [القصص] فكانت زوجته ، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم . والإنسان منا يحتاج لأشياء كثيرة تقتضى التعدُّد : فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للنظافة ، وهذا لكَيِّ الملابس .. إلخ .

لكن هناك شىء واحد لا يستطيع أحد أنْ يقضيَه لك إلا زوجتك ، هى النسْل والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم لك بكل هذه الأعمال ، إذن : فهى تُغْنى عن الأهل كلهم ، ونستطيع أن نقول : إنه لم يكُنْ معه إلا زوجته .

وهذه شائعة فى لغتنا : يقول الرجل : الجماعة أو جماعتى أو أهلى ويقصد زوجته ، وفى هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته .

ومعنى ﴿ آنَسْتُ .. ۝ ٧ ﴾ [النمل] آنس : يعنى شعر وأحسَّ بشىء يُؤنسه ويُطمئنه ، وضده التوجس : أى شعر وأحسَّ بشىء يخيفه ، ومنه قوله تعالى فى شأن موسى أيضاً : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۝ ٦٧ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ۝ ٦٨ ﴾ [طه]

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ٨ ﴾

أى : جاء النار فـ ﴿ نُودِىَ .. ⑧ ﴾ [النمل] النداء : طلب إقبال ، كما تقول : يا فلان ، فيأتيك فتقول له ما تريد . فالنداء مثلاً فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ ⑪ ﴾ [طه] نداء ﴿ إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ .. ⑭ ﴾ [طه] خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿ نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] ولم يقُلْ : يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا : مجرد الخطاب هنا يُراد به النداء ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه يناديه ، ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .. ㊹ ﴾ [الأعراف]

فذكر الخطاب مباشرة دون نداء ؛ لأن النداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام ، ومنه أيضاً : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ㊽ ﴾ [الأعراف]

ومنه أيضاً : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى .. ㉔ ﴾ [مريم] فجعل الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] كلمة بُورك لا تناسب النار ؛ لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ .. ⑧ ﴾ [النمل] فلا بُدَّ أن مَنْ فى النار خَلْق لا يُحرق ، ولا تؤثر فيه النار ، فمَنْ هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة[1] .

وقد رأى موسى ـ عليه السلام ـ مشهداً عجيباً ، رأى النار تشتعل فى فرع من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خُضْرة ،

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ .. ⑧ ﴾ [النمل] يعنى تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين فى الشجرة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧ ﴾ [النمل] . يعنى الملائكة . أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤١) .

فلا النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة ومائيتها تطفيء النار[1] ، فمَنْ يقـدر على هذه المسألة ؟ لذلك قـال بعدها : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑧﴾ [النمل]

ففى مثل هذا الموقف إياك أنْ تقـول : كيف ، بل نزِّه الله عن تصرفاتك أنت ، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنسبة لك ، أمَّا عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مـثل هذه المعجـزة فى قصة إبراهيم ـ عليـه السلام ـ حين نجَّـاه ربه من النار ، ولم يكُنْ المقـصود من هذه الحـادثة نجاة إبراهيم فـقط ، فلو أن الله أراد نجـاته فـحـسب لَمَـا أمكنهم منه ، أو لأطفأ النار التى أوقدوها بسحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكنة لنجاة سيدنا إبراهيم .

لكن الله تعالى أرادهم أنْ يُمسكوا به ، وأنْ يُلْقوه فى النار ، وهى على حال اشـتعالهـا وتوهّجهـا ، ثم يُلْقونه فى النار بأنفـسهم ، وهم يروْنَ هذا كله عَيَاناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم : أنا أريد أن أنجـيه من النار ، رغم قـوة أسـبابكم فى إحـراقـه ، فأنا خـالق النار ومعطيها خاصية الإحراق ، وهى مُؤتمرةٌ بأمرى أقول لها : كُونى بَرْداً وسلاماً تـكون ، فالمسألة ليـست ناموساً وقاعـدة تحكم الكونَ ، إنما هى قيوميتى على خَلْقى .

إذن : ما رآه مـوسى ـ عليه السلام ـ من النار التى تشـتعل فى خضرة الشـجرة أمر عجـيب عندكم ، وليس عجيبـاً عند مَنْ له طلاقة القدرة التى تخرق النواميس .

---

(١) قال ابن كثيـر فى تفسيره (٣/٣٥٦) : « فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيـماً حيث انتهى إليـها والنار تضطرم فى شـجرة خـضراء لا تزداد النار إلا توقـداً ، ولا تزداد الشـجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسـه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عـباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج » .

وبناء الفعل ﴿بُورِكَ .. ⑧﴾ [النمل] للمجهول تعني : أن الله تعالى هو الذي يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل] يجوز أن يكون الملائكة ، أو : بُوركت الشجرة ذاتها لأنها لا تُحرق ، أو النار لأنها لا تنطفىء فهي مُباركة .

وفي موضع آخر يُوسِّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه : ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ[1] الشَّجَرَةِ .. ㉚﴾ [القصص]

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى :

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨﴾

جاء هنا النداء على حقيقته بأداة ومنادى ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ .. ⑨﴾ [النمل] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجَّب مما ترى ، وساعةَ تسمع مَنْ يُكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك ، فلا تتعجب ولا تندهش .

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩﴾

ونلحظ أن هنا تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية هنا ، وذُكرت في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾ [طه]

والأدب يقتضي أن يأتي الجواب على قَدْر السؤال ، لكن موسى -

(١) أي : من ناحية الشجرة . وقيل : كانت شجرة العُليق . وقيل : سمرة ، وقيل : عوسج ، ومنها كانت عصا موسى . ذكره الزمخشري . والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد . [القرطبي في تفسيره ٥١٦٨/٧] .

عليه السلام ـ أراد أنْ يطيل أمد الأُنْس بالله والبقاء في حضرته تعالى ، ولما أحسَّ موسى أنه أطال في هذا المقام أجمل ، فقال ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه] فللعصا مهام أخرى كثيرة في حياته .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ۝١٠﴾ [النمل] يعني : إنْ كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندي مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندي ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ۝١٠﴾ [النمل] فلمّا ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ۝١٠﴾ [النمل] يعني : حية تسعى وتتحرك ، والعجيب أنها لم تتحول إلى شيء من جنسها ، فالعصا عود من خشب ، كان فرعاً في شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفّتْ صارت جماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعني : إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة .

أمّا الحق ـ تبارك وتعالى ـ فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف ، خاصة وهي ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ۝١٠﴾ [النمل] أي : تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

وطبيعي في نفسية موسى حين يرى العصا التي في يده على هذه الصورة أنْ يخاف ويضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه]

ومعنى ﴿الْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً مع الخصوم ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تتتبع اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان) ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهي كلها حالات للشيء الواحد ، فالجان فَرْخ الثعبان ، وله من خفة الحركة ما ليس للثعبان ، والحية هي الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ⑩﴾ [النمل] يعني : انصرف عنها وأعطاها ظهره ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ⑩﴾ [النمل] تقول : فلان يُعقِّب يعني : يدور على عَقبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ؛ لذلك ناداه ربه سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩﴾ [النمل]

ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المنادى موسى ـ عليه السلام ـ وكأنهما تعويض للنداء السابق الذي نُودي فيه بالخبر ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل]

وعلَّة عدم الخوف ﴿لَا تَخَفْ .. ⑩﴾ [النمل] ليعلمه أنه سيُضطر إلى معركة ، فليكُنْ ثابتَ الجأش لا يخاف لأنَّه لا يحارب شخصاً بمفرده ، إنما جمعاً من السَّحرة جُمعوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق أنْ قال له : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⑥⑧﴾ [طه] حتى لا تُرهبه هذه الكثرة .

وهنا قال ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⑩﴾ [النمل] والمعنى : لا تخفْ ، لأني أنا الذي أرسلتُك ، وأنا الذي أتولَّى حمايتك وتأييدك ، كما قال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ⑰① إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ⑰② وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ⑰③﴾ [الصافات]

فأنت معذور في الخوف ، ، إنْ كنتَ بعيداً عني ، فكيف وأنت في جواري وأنا معك ، وها أنذا أخاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألف هذه المسألة ويأنس إليها ، وتحدث له دُرْبة ورياضة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية .

وبعد ذلك يأتي بآية تثبت منطقة التكليف في البشر حتى الرسل ، والرسل أيضاً مُكلَّفون ، وكل مُكلَّف يصح أنْ يطيع أو أن يعصى ، لكن الرسلَ معصومون من المعصية ، أما موسى عليه السلام فله حادثة مخصوصة حين وكَز الرجل فسقط ميتاً ، فقال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) ﴾ [الشعراء]

وفي موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب : ﴿ قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) ﴾ [القصص]

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم :

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾

إذن : فالاستثناء هنا من قوله تعالى ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾ [النمل] استثنى من ذلك ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ .. (١١) ﴾ [النمل]

وكأنه - عز وجل - يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ .. (١١) ﴾ [النمل] أي : حين قتَل القبطي[1] ، لكن

---

(١) القبطي هو المصري من أهل البلد التابع لفرعون وليس المقصود به النصراني المسيحي ، فموسى قبل عيسى بأجيال كثيرة ، وبينهما أنبياء ورسل كثيرون .